International Journal of Educational Sciences and Arts (IJESA)
Vol. (3), No. (1)
IJESA
January 2024
المجلة الدولية للعلوم التربوية والآداب
الإصدار (3)، العدد (1)

نظرية ما بعد الاستعمار والمقاومة الثقافية: استعادة الصوت والعقل

يسن إبراهيم بشير علي
أستاذ دكتور، قسم اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة الملك فيصل، المملكة العربية السعودية
yiali@kfu.edu.sa , ysn3ysn71@gmail.com

المستخلص

تكمن أهميّة هذه الدراسة في سعيْها إلى رصد الجهود التي نهضت بها المقاومة الثقافية في سياق نظرية ما بعد الاستعمار. هادفةً إلى معالجة إشكاليتيْن تقعان في صميم هذه المقاومة، هما: استعادة الصوت المقموع، والعقل المحتلّ للمستعمَر. وتستهدي الدراسة في معالجة هاتيْن الإشكاليتيْن بالمقاربة الثقافية التي توفِّر للباحث آليّات وإجراءات تمكّنه من استقراء الظاهرة الثقافية وتمثُّلاتها في مظانِّها المختلفة، فيعمل على تحليلها ووصفها وتأويلها. وقد أظهرت الدراسة أنّ المستعمَرين السابقين حين امتلكوا اللغة وأدوات التعبير المختلفة قدّموا تجارب إبداعية ونقدية جديدة، وخطاب ثقافي يغاير خطاب المستعمِرين، ويعمل على تقويض الأسس التي قام عليها.

الكلمات المفتاحية: المقاومة الثقافية، ما بعد الاستعمار، الصوت المقموع، العقل المحتلّ.

Postcolonial Theory and Cultural Resistance: Recovering Voice and Mind

Yasin Ibrahim Bashir Ali
Professor, Department of Arabic Language, College of Arts, King Faisal University, Saudi Arabia
yiali@kfu.edu.sa , ysn3ysn71@gmail.com

Abstract

The importance of this study lies in its attempt to monitor the efforts of cultural resistance in the context of postcolonial theory. It aims to address two problems that lie at the heart of this resistance: the restoration of the suppressed voice, and the occupied mind of the colonized. The study is guided in addressing these two problems by the cultural approach, which provides the researcher with mechanisms

and procedures that enable him to extrapolate the cultural phenomenon and its representations in its various manifestations, so he works on analyzing, describing and interpreting it. The study showed that the former colonists, when they possessed the language and various tools of expression, provided new creative and critical experiences, and a cultural discourse that differs from the speech of the colonizers, and works to undermine the foundations on which it was based.

Keywords: Cultural Resistance, Postcolonialism, Suppressed Voice, Conquered Mind.

المقدمة

ما يميِّز الإنسان هو امتلاكه خاصيتيْ التعبير والتفكير (استخدام اللغة والعقل)، وفقدانه لهاتيْن الخاصيتيْن يفقدانه الخاصيّة المحدِّدة له بعدِّه إنساناً كامل الأهلية. ما يقوم به المستعمِر وثقافته المهيمنة عادةً هو الاستحواذ على اللغة والكتابة بقمع أصوات المستعمَرين، والسيطرة على عقولهم من خلال التحكُّم في عملية إنتاج المعرفة وتوزيعها. ما تحاول هذه الدراسة معالجته، هو مقاربة الدور الذي نهض به مفككو خطاب المستعمِر في استعادة الصوت المقموع، والعقل المحتلّ للمستعمَرين السابقين؛ وهذا ما يمثّل جوهر المقاومة الثقافية التي تصدّت لكشف أساليب المستعمِر المخاتِلة بالردِّ عليه كتابةً للاستحواذ على اللغة واستعادة ميدان الكتابة الإبداعية، ومقارعته الحجة بالحجة حول مصادر المعرفة الإنسانية المشتركة، بوصفها ظاهرة كونية تداولية أنتجتها خبرات تراكمية، أسهمت فيها حضارات عديدة.

جاءت الدراسة في ثلاثة مباحث وخاتمة، المبحث الأول حوى مدخلاً نظرياً يعالج ملابسات ظهور نظرية ما بعد الاستعمار، وأهم قضاياها، وتناول المبحث الثاني استعادة الصوت، وتناول المبحث الثالث استعادة العقل، والجهود التي نهضت بها المقاومة الثقافية في كل ذلك، ثم جاءت الخاتمة تحوي أهم النتائج التي خلصت إليها الدراسة.

أهمّية الدراسة

تأتي أهمّية هذه الدراسة من أنّها سعت إلى تعميق البحث في واحدة من النظريات الأدبية والنقدية المعاصرة التي أحدثت تفاعلاً كبيراً، أظهرته الدراسات التي درات حولها، والإشكالات المعقّدة التي أثارتها وعملت على

معالجتها، والحقول المعرفية العديدة التي تمددت فيها، فجاءت هذه الدراسة؛ لترصد الجهود التي بذلها مفككو خطاب المستعمِر في نقده وتحليله، وتقويض الأسس التي قام عليها، ومن خلال إنتاج نصوص إبداعية جديدة تكشف عن قدرة الأصوات المقموعة والعقول المستلبة سابقاً في التعبير والتفكير على حدٍّ سواء.

إشكالية الدراسة

تكمن إشكالية الدراسة في سعيها للإجابة عن الأسئلة التالية: كيف ظهرت نظرية ما بعد الاستعمار؟ ومن هم روّادها؟ وما طبيعة المقاومة الثقافية التي أنتجتها هذه النظرية؟ وإلى أيِّ مدى نجحت هذه المقاومة في استعادة أصوات المستعمَرين السابقين المقموعة، وعقولهم المحتلّة؟ فترصد طبيعة هذه العلاقة المعقّدة، والحِيل التي تبنتّها المقاومة الثقافية للكشف عن استراتيجيات الخطاب الاستعماري، بغرض معرفة أبعاده، والعمل على مقاومته.

منهج الدراسة

تتنزّل الدراسة في حقل الدراسات الثقافية التي تقارب العلاقة بين الذات والآخر في سياق خطابات الاستعمار وما بعد الاستعمار، فتستهدي بالمقاربة الثقافية التي توفِّر للباحث آليّات وإجراءات تمكّنه من استقراء الظاهرة الثقافية وتمثُّلاتها في مظانِّها المختلفة، فيعمل على تحليلها وفهمها وتفسيرها.

الدراسات السابقة

الدراسات التي بحثت في نظرية ما بعد الاستعمار ليست قليلة، منها على سبيل المثال مما له علاقة بهذه الدراسة:

- الإمبراطورية تردُّ بالكتابة: آداب ما بعد الاستعمار: النظرية والتطبيق، بيل أشكروفت، جاريث جريفيثز، هيلين تيفين، ترجمة خيري دومة، أزمنة للنشر والتوزيع، عمّان، الأردن، ط1، 2005. وهو من أوائل الكتب التي درس آداب ما بعد الاستعمار، والمداخل النقدية لها.
- بحث بعنوان (نظرية ما بعد الاستعمار) ضمن كتاب: نظريات النقد الأدبي والبلاغة في مرحلة ما بعد الحداثة، جميل حمداوي، شبكة الألوكة. ركز الباحث فيه على التعريف بالنظرية ورصد المرتكزات التي قامت عليها النظرية.

- النظرية ما بعد الكولونيالية والتلقّي العربي، بو حاريش نادية، مذكّرة مقدمة لنيل درجة الماجستير في اللغة والأدب العربي، من جامعة محمد الصديق بن يحيى، الجزائر، (2015-2016). اهتم البحث بإشكالية التلقّي لعربي لهذه النظرية. وغيرها من الدراسات.

ما يميّز هذه الدراسة أنها سعت إلى الكشف عن جهود مفككي خطاب الاستعمار، والحيل التي لجأت إليها المقاومة الثقافية على الصعيد النقدي والإبداعي لتحرير المستعمَرين السابقين وثقافاتهم من تبعيّة المستعمِر؛ بإنتاج صوتهم الخاصّ، وإبراز فكرهم المتحيِّز إلى واقعهم والثقافي والمعرفي.

المبحث الأوّل: نظريّة ما بعد الاستعمار

يُعدُّ صدور كتاب (الاستشراق) لإدوار سعيد في العام 1978م، البداية الحاسمة لظهور هذه النظرية، بالرغم من أنّ الأفكار التي طرحتها النظرية ليست وليدة النصف الثاني من القرن العشرين، بل قديمةٌ قِدم الاستعمار نفسه. فقد فتح سعيد من خلال الأفكار التي طرحها في هذا الكتاب باباً للنقاش حول مشروع الاستشراق، ظنّ الكثيرون أنّه أُغلق وتحوّل إلى مجرّد مبحث أكاديمي ينتمي إلى التاريخ، لكن عمل سعيد في هذا الكتاب كان مختلفاً، مثّل مرحلةً جديدةً للبحث حول (الاستشراق)، شكّلت منعطفاً مهمّاً في دراسته، حيث لم يسعَ سعيد إلى تقصّي الاستشراق والبحث عنه في مظانّه المختلفة كما ظلّ يفعل سابقوه، وإنّما تعامل مع متنه الضخم بوصفه نظاماً للخطاب قابلاً للتحليل والتأويل والنقد، مستفيداً في هذا الصدد من آليات تحليل الخطاب التي ظهرت عند فلاسفة وباحثين مؤثّرين في الفكر الغربي الحديث من أمثال نيتشة وغرامشي وفوكُو، ناظراً في دراسته للاستشراق وإلى المعرفة الغربية المرتبطة به عن الشرق نظرة ارتيابٍ ومساءلةٍ، بوصف هذا الاستشراق مشروعاً ثقافياً للغرب، وإساءة تمثيل للشرق، يلبّي حاجات الحاضنة الثقافية والعلمية التي أنتجته أكثر مما يلبّي حاجات موضوعه المفترض. فقد ابتكر مشروع الاستشراق الشرقَ نفسه، ورسم حوله الكثير من الصور الفانتازية والمتخيّلة، وهو من جانبٍ آخر ليس مشروعاً معرفياً فحسب، وإنّما نظام جديد للمعرفة التي تؤسِّس للهيمنة، نتج عنها مشروع الاستعمار الغربي الحديث. من هنا أخذ كتاب (الاستشراق) مكانته بوصفه عملاً تأسيسياً في نظرية ما بعد الاستعمار التي اضطلعت بتحليل الخطاب الاستعماري وتفكيكه، وتقصّي آثار التجربة الاستعمارية الغربية الحديثة في الشعوب المستعَمَرة وثقافاتها. أتبع سعيد كتابه هذا بكتبٍ أخرى تكمل ما بدأه فيه، لعلّ أهمّها كتابه الموسوم (الإمبريالية والثقافة). ثم قُيض لهذه النظريّة أن تتوسّع من خلال جهود نقّادٍ آخرين عمّقوا البحث في الأفكار التي أثارها إدوارد سعيد، وغيرها من القضايا التي ترتبط بالاستعمار وآثاره، والتحوّلات الحضارية التي طرأت على حياة المجتمعات التي خضعت للاستعمار.

International Journal of Educational Sciences and Arts (IJESA)
Vol. (3), No. (1)
IJESA
January 2024
المجلة الدولية للعلوم التربوية والآداب
الإصدار (3)، العدد (1)

أما مصطلح (ما بعد الاستعمار) فليس من اختراع إدوارد سعيد أو غيره من أعلام النظرية، وإنما هو مقولةٌ سياسيةٌ تمّ توظيفها في المجال الأدبي والنقدي، فقد استخدمه دارسو هذه النظرية ليغطّي (كل الثقافات التي تأثّرت بالعملية الإمبريالية من لحظة الاستعمار حتى يومنا الحالي) [1]، يشمل هذا بالضرورة مساحة واسعة من الكون تحوي الآداب والثقافات الأفريقية، والأمريكية شمالاً وجنوباً، والكندية والأسترالية، وجزءاً كبيراً من الآداب الآسيوية، خاصة في الهند وباكستان وبنغلاديش وإندونيسيا وماليزيا ونيوزيلاندا، وغيرها.

"ما يجمع بين هذه الآداب أنها ظهرت بشكلها الحالي في أعقاب تجربة الاستعمار. وأكّدت نفسها من خلال إبراز التوتُّر مع القوة الإمبريالية، وبالتركيز على ما يميزها عن فرضيات المركز الإمبريالي. وهذا بالضبط ما يجعلها آداباً ما بعد استعمارية) [2].

لا شك أن الشعوب التي خضعت للاستعمار الحديث كانت لهم حياتهم الثقافية وفنونهم التعبيرية الخاصة بهم، ولهم ممارساتهم الاجتماعية والسياسية، قبل أن يشكّلها الاستعمار على النحو الذي ظهرت عليه بعد رحيله.

أطلّت هذه النظرية على الفضاء الأكاديمي من المؤسسات العلمية الغربية منذ نهاية العقد السابع من القرن العشرين، وحظيت "باهتمام فائق خلال عقديْ الثمانينات والتسعينات، وبدت كأنها إعادة نظر في تاريخ آداب الإمبراطوريات السابقة، بحث تشمل مستعمراتها التي كانت منتشرة في أنحاء العالم، وما أُنتج في هذه المستعمرات من أدب بالإنجليزية على وجه الخصوص. كما بدت النظرية من ناحية أخرى، وكأنها إعادة نظر في ماهية الأدب وأنواعه وموضوعاته التي تستحق الدراسة النقدية الحديثة"[3]، حيث توفّر على صياغتها والتنظير لها أكاديميون عملوا في الجامعات الغربية وخاصة في أمريكا، جاؤوا من خلفيات متنوِّعة يرجع معظمهم في أصوله إلى مناطق خضعت للاستعمار الغربي الحديث، من أمثال: إدوارد سعيد ذي الأصول الفلسطينية، وهومي بابا، وغياتري سبيفاك اللذيْن تعود أصولهما إلى الهند، وهؤلاء الثلاثة يُطلق عليهم المثلّث الذهبي للنظرية. ومن الحق القول إن نقّاداً آخرين كُثر سبقوهم في هذا المضمار من أشهرهم الكاتب الفرنسي ذي الأصل المارتينيكي فرانز فانون (ت 1961)، فقد طرح فانون قبل تبلور النظريّة في صورتها النهائية أفكاراً تقع في صميم الخطاب ما بعد الاستعماري، خاصة في كتابه (معذبو الأرض) الذي قدّم له

---

[1] بيل أشكروفت، جاريث جريفيثيز، هيلين تيفين، الإمبراطورية تردُّ بالكتابة: آداب ما بعد الاستعمار: النظرية والتطبيق، ترجمة خيري دومة، أزمنة للنشر والتوزيع، عمّان، الأردن، ط1، 2005: ص25.

[2] نفسه: ص 26.

[3] خيري دومة، تقديم المرجع نفسه: ص 8.

International Journal of Educational Sciences and Arts, London Vol (3), No (1), 2024
https://doi.org/10.59992/IJESA.2024.v3n1p3 E-ISSN 2976-7237

International Journal of Educational Sciences and Arts (IJESA)
Vol. (3), No. (1)
IJESA
January 2024
المجلة الدولية للعلوم التربوية والآداب
الإصدار (3)، العدد (1)

الفيلسوف الوجودي جان بول سارتر مما حقق له تداولاً واسعاً في فرنسا والغرب، ناقش فيه الآثار المدمّرة للاستعمار على الشعوب المستعمَرة وثقافاتها، طارحاً فيه أفكاراً عديدةً ما تزال تجد صداها في حقول مختلفة من الدراسات الثقافية والاجتماعية والسياسية، مثل: عقدة القابلية للاستعمار، والضياع الحضاري للمستعمَرين، والعنف الاستعماري وما يستلزمه من عنف مقابل، وغيرها. وبجانب فانون كان هنالك مجموعة من المقاومين الثقافيين، منهم الشاعر الفرنسي المارتنيكي إيمي سيزار، والشاعر والرئيس السنغالي الأسبق ليوبولد سيدار سنغور اللذيْن انخرطا في مقاومة الاستعمار وآثاره من خلال عملهما في حركة الزنوجة التي تدافع عن حقوق السود وقضاياهم، وغيرهم من الأدباء والنقاد.

طرحت هذه النظرية الكثير من القضايا على بساط البحث، مثل: ظاهرة التغريب، وتفكيك الخطاب الاستعماري، وعلاقة الأنا بالآخر، والهجنة الثقافية، وغيرها من القضايا التي تدور حول إشكالية كبرى تتمثّل في البحث عن الذات المستلبة، والهويّة الضائعة، والثقافات المطموسة للشعوب الأصليّة، من خلال استعادة صوتها المقموع، واستعادة عقلها المحتلّ، في سياق حركة مقاومة ثقافية امتدت على مساحة واسعة من الكرة الأرضية.

المبحث الثاني: استعادة الصوت

من أكثر تعقيدات المشهد الثقافي في عالم ما بعد الاستعمار ذلكم الضياع اللغوي الذي شهدته مجتمعات المُسْتعمَرين السابقين، ومحاولاتهم الدؤُوبة في استعادة صوتهم المفقود. فقد عمل الاستعمار منذ اللحظة الأولى لتنفيذ مخططه في السيطرة والاستحواذ، على قمع صوت المستعمَرين عن طريق امتلاك اللغة وتوظيفها لخدمته بوصفها أداة الاتّصال الرئيسة التي يستطيع من خلال التحكّم فيها تحقيق نتائج عملية مباشرة في السيطرة والتوسُّع، ولعلّ هذا ما أشار إليه أنطونيو دي نيبريخا في مقدِّمة كتابه الذي نشره في العام 1492، والذي يعدُّ أوّل كتابٍ عن نحو لغةٍ أوربيةٍ حديثة، فقال "لقد كانت اللغة دائماً قرينة الإمبراطورية"[4]، أي قرينة التوسّع والانتشار. فاهتمام أوربا بنشر لغاتها قهراً كان أم طواعيةً بدا حاسماً بالنسبة لها منذ بداية خروجها الكبير في مطلع العصر الحديث، وسعيها للهيمنة على الآخر غير الأوربي، حيث تتمّ هذه الهيمنة وفق تسلسلٍ ينطلق من عدم الاعتراف بلغة الآخر، ثم يُستتبع ذلك بفرض لغة المستعمِر عليه، بزعم أنّها لغة معيارية وضرورية لدمجه في مسار التطوّر الحضاري. هذا الأمر كان منذ أوّل مستكشفٍ وممثلٍ لطلائع الاستعمار الغربي الحديث، كريستوفر كولومبوس الذي نجح في الوصول إلى شواطئ أمريكا الجنوبية في العام

[4] تزفيتان تودوروف، فتح أمريكا: مسألة الآخر، ترجمة: بشير السباعي، سينا للنشر، القاهرة، مصر، ط1، 1992: ص 131.

1492، ويمكن القول إن هذا الأمر ظلّ يتكرر مع كلّ مستعمِرٍ في علاقاته مع المستعَمرين إلى وقتنا الحاضر، يقول تودوروف:

"وهكذا فإن كولومبوس لا يعترف بتنوُّع اللغات، وهو الأمر الذي يسمح له عندما يواجه لغةً أجنبيةً، بشكلَيْن اثنيْن فقط من أشكال السلوك، ممكنيْن ويتمّم أحدهما الآخر؛ الاعتراف بها كلغة، ولكن مع رفض الاعتقاد بأنّها مختلفة، أو الاعتراف باختلافها، ولكن مع رفض الاعتراف بأنها لغة"[5].

فأسلوب المصادرة الذي جاء به المستعمِر إذن بدأ من مصادرة الأرض ولم يتوقّف عندها، فقد تبع ذلك مصادرة الصوت والكلام وأدوات التعبير، ثم كانت المصادرة التامة للآخر؛ لكونه لا يمثّل ذاتاً مستقلّة، لها هويّتها الثقافية الخاصة بها، حدث ذلك في أوّل لقاءٍ حضاريٍّ بين أوربا والآخر غير الأوربي، الذي كان في بادئ الأمر يجري في ظروف طبيعية، ظروف استكشافٍ وتعرُّفٍ، لكن هذا اللقاء سرعان ما تحوّل مع مرور الزمن ليصبح استعباداً واستعماراً للهنود الأمريكيين، ما يعني أنّ هذا اللقاء كان بمثابة تمهيد الأرض لمحارق قادمة، فقد ظلّ كولومبوس في لقائه بالهنود ينظر إليهم بوصفهم مجرد أشياء تمثل جزءاً من المشهد الطبيعي المتنوّع، لا يمتلكون جوهراً إنسانياً، وليس لهم مكان خاص بهم، وليس لهم الحق أو القدرة في تمثيل أنفسهم. ومن الطبيعي في هذه الحالة ألا يعترف بلغتهم، أو يحترم قِيَمهم وعاداتَهم، لذلك حين يشرع في العودة من رحلته الأولى يعمل على أخذ عدد منهم إلى أسبانيا "حتى يتسنّى لهم تعلُّم الكلام"[6].

هكذا ظلّت هذه النظرة الدونية للآخر وإسقاط المفاهيم الغربية وعادات التواصل والكلام عليه، ترافق كل الحملات التي أعقبت كولومبوس، وتلاحقت في الوصول إلى أمريكا منذ بداية القرن السادس عشر. ومن أهمّها حملة كورتيس[7] الذي لم يأتِ من أجل الذهب فحسب، وإنما لشيءٍ أكبر من ذلك، فهو ما أن يسمع بوجود إمبراطورية الأزتيك أو مملكة موكتيزوما في المكسيك حتى يقرر "ألا يكتفي بانتزاع الثروات، بل إن عليه إخضاع المملكة نفسها"[8]، وانتهج لأجل ذلك سياسةً جديدةً تقوم على الفهم قبل الاستيلاء، والفهم يبدأ بامتلاك العلامات التي توفِّر المعرفة والمعلومة، ولما كانت اللغة هي الحاجز الذي يقف أمام كورتيس فقد عمِل على

---

[5] نفسه: ص 36.
[6] نفسه: ص 36.
[7] فرناندیز كورتيس (1485_1547) مستكشف أسباني، قام بغزو المكسيك والاستيلاء عليها. وتدمير حضارة الآزتيك. أما الآزتيك فهو شعب سكن المكسيك وأقام فيها حضارة عظيمة قبل وصول الأسبان إليها. وأما موكتيزوما فهو الإمبراطور الآزتيكي للمكسيك في الفترة بين (1502_1520).
[8] نفسه: ص 108.

امتلاكها من خلال السعي إلى تعليم أسبان كُثُر لغة الآزتيك، اللغة الناهلواتلية، وفرضها على المجتمع المكسيكي متعدد اللغات والثقافات، قبل أن يفرض عليهم (الأسبنة) التامّة عن طريق تدريس اللغة الأسبانية، "وهكذا فإن الأسبان هم الذين سوف يؤكّدون اللغة الناهلواتلية بوصفها اللغة الأهلية القومية في المكسيك، قبل أن يحققوا الأسبنة"[9]، أي بفرض اللغة الأسبانية في نهاية المطاف وجعلها اللغة الرسمية للدولة. وإذا كان سلوك كورتيس السيميوطيقي ينتمي إلى زمانه ومكانه فيما يتعلّق بالتعامل مع اللغة، والتحكّم فيها، وفي الوظائف التي تحققها من حيث هي أداة تخدم عملية الاندماج داخل صفوف الجماعة، مثلما تخدم عملية التلاعب بالآخر، فإن "موكتيزوما يُعلي من شأن الوظيفة الأُولى، أما كورتيس فإنه يُعلي من شأن الوظيفة الثانية"[10]. لذلك يتساءل تودوروف إن كان انتصار الأسبان رغم تفوق الهنود العددي قد تم عن طريق العلامات؟ حيث "تزعم شهادة الروايات الهندية، والتي هي وصف بأكثر من كونها تفسيراً، أنّ كل شيء قد حدث لأن المايا والأزتيك قد فقدوا السيطرة على الاتصال"[11]. هكذا اكتشف المستعمِر حليفاً مهمّاً يقوده إلى التفوّق على الآخر، يكمن في السيطرة على العلامات، بالتحكُّم في وسائل الاتصال التي من أهمّها اللغة.

إذا كان هذا هو سلوك المستعمِر في مراحله المبكّرة، الذي نتج في أغلب الظنّ عن صدفةٍ محضةٍ، كانت في أول أمرها استكشافاً ثم تطورت إلى استعبادٍ وهيمنةٍ تامةٍ، فما بالك بالاستعمار الذي جاء نتيجة تخطيط وعمل مدروس للتوسُّع والتملُّك خارج أوربا، الذي كان سمةً مائزةً للعصر الحديث، إلى حواليْ منتصف القرن العشرين، مغطّياً أجزاء واسعة من الكون كما أشرنا سابقاً، ومؤثّراً تأثيراً ثقافياً عميقاً في حياة الشعوب المستعمَرة، بل كان تطويقاً تامّاً أزاح فيه المستعمِر الثقافات واللغات القومية، وأحلّ مكانها ثقافات ولغات المستعمِر، يقول فرانز فانون: "إننا إذا فكرنا في الجهود التي بُذلت من أجل تحقيق الضياع الحضاري الثقافي الذي يتميّز به العهد الاستعماري، أدركنا أنه ما من شيءٍ تمّ مصادفة"[12]، ذلك أن السيطرة الاستعمارية التي اتّصفت بالشمول والإحاطة قادت في نهاية المطاف إلى تهديم الوجود الثقافي للشعوب المستعمَرة وإزاحته. فمن طبائع الاستعمار أنه "لا يكتفي بأن يلغي الوجود الموضوعي للأمة وللثقافة المضطهديْن، وإنما يبذل جميع الجهود اللازمة من أجل أن يحمل المستعمَر على الاعتراف بتخلّف ثقافته"[13].

---

[9] نفسه: ص 133.
[10] نفسه: ص133.
[11] نفسه: ص 69.
[12] فرانز فانون، معذبو الأرض، ترجمة: سامي الدروبي وجمال الأتاسي، مدارات للأبحاث والنشر، القاهرة، مصر، ط2، 2015: ص 170.
[13] نفسه: ص 191.

International Journal of Educational Sciences and Arts (IJESA)
Vol. (3), No. (1)
IJESA
January 2024
المجلة الدولية للعلوم التربوية والآداب
الإصدار (3)، العدد (1)

من هذه اللحظة، لحظة الوعي المتشكّل عن خطورة سلوك المستعمِر تبدأ المقاومة الثقافية وعملية تفكيك الاستعمار، وتبدأ الشعوب المستعمَرة في البحث عن ذاتها المستلبة، وعن ثقافاتها المطموسة، وعن صوتها المفقود، وتعمل على استعادته. وهي عملية مضنية ومعقّدة لا شك في ذلك، تحتاج إلى جهود كبيرةٍ حتى تحقق النجاح، هذا إذا كان لها أن تنجح! خاصة في ظل تطاول فترات الاستعمار، والجهود العظيمة التي بذلها في سبيل طمس ثقافات الشعوب الأصلانية، وإزاحة لغاتها، وترسيخ ثقافاته ولغاته بدلاً عنها.

وقد بدأت المقاومة الثقافية للاستعمار ومحاولات الرد عليه؛ باستخدام ذات الأدوات التي كان يحوزها المستعمِر، وهي أدوات الاتصال، التي من أهمها اللغة والكتابة الإبداعية والنقدية، بما تمتلكانه من قوة تأثير، وبما تحققانه من استعادة للصوت المقموع، وإعماله في النقد لممارسات الاستعمار ورفض تحيُّزاته، ولهذا فإن مناقشة مسألة استعادة الصوت في الكتابة ما بعد الاستعمارية تقع في سياق الردِّ بالكتابة، تلك التي قامت بها الشعوب المستعمَرة في الاستحواذ على اللغة، والتصرُّف في الكتابة، بما تحتويان عليه من دلالة على السلطة وممارستها، بشكلٍ مختلفٍ عمّا كان سائداً فترة الاستعمار. فنجد مثلاً ممارسة اللغة الإنجليزية في كتابة ما بعد الاستعمار تحوي طائفة من الاستعمالات المختلفة تنأى بطريقة مقصودة عن الاستخدام المعياري لهذه اللغة، بعدِّها هوامش تشكّلت في إطار خطاب قوةٍ قامعةٍ، هو خطاب الاستعمار، وقد "كانت تلك الهوامش مكاناً لبعض أكثر الآداب تشويقاً وإثارةً للجدل في العصر الحديث، وكان هذا _جزئياً على الأقل_ نتيجةً للطاقات التي كشف عنها التوتُّر السياسي بين فكرة الشفرة المعيارية والاستخدامات الإقليمية المختلفة"[14].

قد استخدم مفككو الاستعمار استراتيجيات مختلفة، منها على سبيل المثال الاستحواذ على لغة المستعمِر، ومن ثمّ تهيئتها لكي تنقل حمولة تجربتهم الجديدة والمغايرة، أو كما يعبّر راجا راو[15]، الذي يقول لكي "تنقل _بلغة ليست هي لغة المرء_ الروح التي روحه هو"[16]. وهذا عين ما فعله الكثير من الكتّاب في بقاع واسعة من العالم الذي خضع للتجربة الاستعمارية، ومنهم على سبيل المثال الروائي النيجيري جبريل أوكارا الذي تصرّف في اللغة الإنجليزية بطريقة تجعلها قابلة للفهم، وتستطيع في ذات الوقت حمل عبء تجربته ذات الرؤيا الأفريقية المختلفة، فتمكّن بهذا الفعل من خلق مناخ روائيٍّ تشيع في سردياته الروح الأفريقية التي لا

(14) بيل أشكروفت، جاريث جريفيثيز، هيلين تيفين، الإمبراطورية تردُّ بالكتابة: آداب ما بعد الاستعمار: النظرية والتطبيق: ص 32.
(15) كاتب هندي (1908_ 2006)، يعدُّ أحد أفضل الكُتّاب الهنود، ألف رواياته وقصصه القصيرة باللغة الإنجليزية، ويُعتبر أعماله إسهامًا متنوعًا وكبيرًا للأدب الإنجليزي الهندي والأدب العالمي.
(16) نفسه: ص 67.

تشبه روج المستعمِر وتجربته، فتمكّن بهذا التصرُّف من "أن يطوِّر استخداماً للإنجليزية ذا صلة بالثقافة، وذلك بأن يطبِّق على الإنجليزية النحو والمقاييس المعجمية في لغة الإيجاو Ijaw"[17]. قد يرجع بعض الكُتّاب في بحثهم عن الأصالة إلى لغتهم الأم بعد تمرُّسٍ طويلٍ بلغة المستعمِر، كما فعل الأديب الكيني نغوجي واثينغو الذي عاد إلى لغة الكيكويو، بجعلها واسطةً لكتاباته بعد نشره العديد من الروايات والمسرحيات باللغة الإنجليزية [18]. وقد يستخدم بعضهم لغتهم الأم التي لم يغادروها رغم إلمامهم التامّ بلغة المستعمِر كما هو الحال عند الطيب صالح، في روايته المشهورة موسم الهجرة إلى الشمال، وفي أعماله الروائية الأخرى.

قد يرفض بعض الأدباء الأفكار التي تسعى لتبرير استخدام لغة المستعمِر كما في مثل الفكرة القائلة إن لغة المستعمِر إرثٌ استعماريٌّ عظيم القيمة ينبغي الاستفادة منه، أو أن هذه اللغة صارت قَدَراً لا مفرّ منه، حيث كانوا يرون مثل هذه التبريرات لا تتيح فرصةً لاستقلالية وتطوُّر الآداب والثقافات في عالم ما بعد الاستعمار، هذا ما يقوله الأديب الأفريقي أوبي والي الذي يرى أنّ "القبول غير النقدي للغة الإنجليزية والفرنسية كأداةٍ لا بد منها للكتابة الأفريقية المتعلّمة، توجّهٌ خاطئ، ولا يقدِّم فرصةً لتطوّر الأدب والثقافة الأفريقيين"[19]، وغير تلك من العمليات والاستراتيجيات التي لجأ إليها كتّاب ما بعد الاستعمار، ما يكشف عن طبيعة المواجهة الندّية العنيدة التي شكّلت روح المقاومة الثقافية التي أبدتها الكتابة ما بعد الاستعمارية، باحثةً في كلِّ ذلك عن صوتها المتميّز بعيداً عن فرضيات المركز الإمبريالي.

هذه المجابهة الشاملة كانت السمة البارزة في كتابات ما بعد الاستعمار في شتى بقاع العالم ما بعد الاستعماري، وهو ما يشير إليه إدوارد سعيد الذي يكشف عن طبيعة الرد بالكتابة، أو الردّ خطابياً، حين يقدِّم تلخيصاً لهذه المواجهة، التي تتجاوز اللغة إلى الاستعارة المتبادلة والمناظرة، أو_إن شئت فقل_ الصراع على الصور والرموز والثيمات، فيقول:

"ويشهد المرءُ في بقاعٍ متباينةٍ جداً من العالم ما بعد الاستعماري جهوداً هائلة الحيوية للتعالق مع العالم الحواضري في مناظرةٍ نِدِّيَّةٍ تهدف إلى الشهادة على تنوُّع العالم وفروقه واختلافه، وعلى برامج أهدافه وأولوياته الخاصة وتاريخه الخاص... وفي حالاتٍ أخرى يقوم روائيون كالكيني نغوغي والسوداني الطيِّب صالح

[17] نفسه: ص 70.
[19] نغوجي واثينغو، تصفية استعمار العقل: ص 57.

International Journal of Educational Sciences and Arts (IJESA)
Vol. (3), No. (1)
IJESA
January 2024
المجلة الدولية للعلوم التربوية والآداب
الإصدار (3)، العدد (1)

بمصادرة موضوعات عظيمة في الثقافة الاستعمارية، مثل البحث والرحلة إلى المجهول، لمختلقاتهم الروائية الخاصّة، ويستخدمونها ويدّعونها لأغراضهم الخاصّة ما بعد الاستعمارية"[20].

هكذا إذن يدور التفكير حول استعادة السيطرة على وسائل الاتصال من خلال السيطرة على الكتابة وواسطتها اللغة في آداب ما بعد الاستعمار، أو من خلال إعادة اكتشاف واستخدام الصُّور والثيمات التي كان يحتكرها المركز، وتوظيفها بطريقة جديدة تخدم الهامش وثقافاته، ما أوجد سيطرةً مضادةً تتوجه هذه المرّة من الأطراف نحو المركز، على خلاف ما كان سائداً في السابق، إبان هيمنة خطاب الاستعمار؛ لتفصح هذه المواجهة عن أصواتٍ جديدةٍ، أصواتٍ غير معهودةٍ، تُحيل على تعددية ثقافية ترفض هيمنة ثقافة المركز ومعياريتها المتوهمّة، فأنتجت هذه التعددية خطاباً يجعل مفاهيم من قبِيل الاختلاف والهجنة والتوافقية، هي الجوهر والأساس في تعريف الأدب والثقافة، بدلاً عن مفاهيم النقاء والمعيارية التي كانت سائدة في العهد الاستعماري. فالمبدأ الذي يراه كتّاب ما بعد الاستعمار حاسماً في السيطرة، _وقد استخدمه المستعمِر من قبل بفعالية_، هو التحكُّم في وسائل الاتصال، ذلك أن هذا الاتصال يمنح القوة الكافية لمشروع تفكيك الاستعمار وتصفيته ثقافياً، ومن دون هذا التحكُّم يصبح كلّ جهدٍ في هذا الصدد قليل القيمة، وربما عديمها. لهذا حين يأخذ المستعمَر في امتلاك أدوات التعبير التي كانت يوماً ما حليفة الاستعمار وأدواته في القمع الثقافي الممنهج، فإنه يستشعر أسباب القوّة التي يسعى من خلالها إلى اعتدال الكفّة التي ظلّت على الدوام راجحةً ضده، فيعمل بوساطتها على خلق ممارسات مختلفة، وتجارب كتابية وإبداعية جديدة، وبخيال جديد، تنزع نحو المستقبل، وتمتلك الطاقة والقدرة على التنقيح والرفض، في هذه التجارب الكتابية الجديدة "ينطق الأصلانيُّ الذي كان صامتاً في السابق، ويمارسُ الفعل على أرضٍ استعادها، كجزءٍ من حركةِ مقاومةٍ شاملةٍ من المستعمِر المستوطِن"[21].

المبحث الثالث: استعادة العقل

لم يكن منظرو ما بعد الاستعمار يسعون إلى استعادة الصوت المقموع وتحريره فحسب، وإنما كانوا يطمحون كذلك إلى تفكيك كل أشكال الاستعمار، ومنها استعمار العقل الذي اتّسم بالشمول والرسوخ، وهو في ذات الوقت قابل للاستمرارية دون الحاجة إلى جيوش وسلاح، فإذا كان الاستعمار بصورته التقليدية قد انتهى أو انحسر إلى أضيق نطاق في وقتنا الحاضر، فإن استعمار العقل كما يبدو ما يزال حاضراً، ويشترك فيه _ويا

[20] إدوارد سعيد، الثقافة والإمبريالية، ترجمة: ص 100.
[21] نفسه: ص 270.

للمفارقة_ المستعمِر والمستعمَر على حدٍّ سواء. فإذا كان عقل المستعمَر قد تمّ احتلاله وفق خطةٍ مرسومةٍ بدأت مع بواكير الاستعمار واستمرّت بعد خروجه كما سنوضح لاحقاً، فإنّ عقل المستعمِر نفسه ظل خاضعاً هو الآخر إلى استعمارٍ من نوعٍ آخر، تمثّل في وقوعه تحت تأثير أيديولوجيا مستحكمة أنتجت الكثير من الأساطير والأوهام حول الذات الأوربية، فأدّت إلى تضخيمها وتقزيم الآخر، من أهمّ تلك الأساطير أسطورة احتكار المعرفة تاريخاً وحاضراً، فقد دأب الغرب الاستعماري على التأكيد بأن مسار التقدّم العلمي كان غربياً بامتياز ومغلقاً على نفسه، ولم يكن للهوامش خارج أوربا دورٌ فيه وفي تطوُّره.

بيد أنّ دراسات ما بعد الاستعمار بما أتاحته من مناخٍ بحثيٍّ منظّمٍ ومسلّحٍ بالتطلُّع والجدّية، وبما أثارته من تساؤلات مهمّة، أطلقت العنان للتفكير النقدي حول الكثير من المسلمات الغربية، في هذا الصدد جاء نقدها لمسلّمة المعرفة الغربية (النقيّة) التي تجعل من أوربا ذاتاً عارفةً، وما سواها مجرّد موضوعات للبحث والمعرفة، لكن العلوم والمعارف الإنسانية إذا أخذناها بمجموعها، وفي تطورها التاريخي والحديث وجدناها نتاج "إسهامات شعوبٍ وأجناسٍ عديدةٍ في أفريقيا وآسيا وأوروبا وأمريكا وأستراليا. والأمر ذاته يصحُّ على تاريخ الفنون_ الموسيقى والرقص والنحت والرسم"[22]، ولنا أن نذكر فقط على سبيل التمثيل إسهامات الحضارة الصينية وما قدمته منذ زمن طويل من تكنولوجيا غزت العالم، تشمل الساعة، والجسر المعلّق بالسلاسل الحديدية، والبوصلة المغناطيسية، والمروحة الدوّارة، والبارود الذي استخدمته أوربا لإخضاع العالم، وغيرها من التقنيات التي كانت "مستخدمة على نطاق واسع في الصين، وكانت عملياً غير معروفة خارجها"[23]، وقد انتشرت هذه التقنيات في العالم كله، ومن ضمنه أوربا، كما نذكر إسهامات الحضارة العربية والإسلامية التي اخترعت علم الحساب الذي يمثّل أساس التقنية الحديثة، واخترعت تكنلوجيا الري واستخدمته في الأندلس لتحويل الأراضي إلى رياض خضراء، فضلاً عن إسهاماتها في الفلسفة وعلم الاجتماع، وهكذا قُلْ في إسهامات الحضارات الأخرى الفراعنة، والبابليين، والهنود الآسيويين، والهنود الأمريكيين، والأفارقة، وغيرهم. وهي إسهاماتٌ لم تنقطع منذ القديم وإلى لحظة اكتشاف لُقاح كورونا الذي أسهم فيه صينيون ومهاجرون أتراك كما هو معلوم. وهكذا يمكن القول إن تاريخ العلم لا يمكن نسبته إلى جهةٍ أو حضارةٍ بعينها، "إن تاريخ الثقافة والأدب والعلوم والرياضيات أشياء يمكن الاشتراك فيها بسهولةٍ أكثر من الدين"[24]، كما يقول أمارتيا صن.

---

[22] نغوجي واثينغو، تصفية استعمار العقل: ص 128.
[23] أمارتيا صن، الهوية والعنف: وهم المصير الحتمي، ترجمة: سحر توفيق، عالم المعرفة، الكويت، 2008: ص 117.
[24] نفسه: ص 95.

في هذا السياق تأتي أهمية عمل الناقد الثقافي الأمريكي من أصل إيراني حميد دباشي في كتابه الذي صاغ عنوانه في صيغة سؤال تحريضي (هل يستطيع غير الأوربي التفكير؟)، يناقش فيه قصور المعرفة الغربية، وينقد أنساقها، وطرق إنتاجها، حيث يحاجج دباشي بأن الأوربيين يحاولون جاهدين تجاوز التاريخ العلمي المشترك للبشرية، ويجادلون في وقتنا الحاضر بأن الغرب كان غرباً دائماً في احتكاره للتفكير وإنتاج المعرفة، بالرغم من هذا الزعم يحتاج إلى إثبات غير متحقق، ويحتاج إلى كفاءة لا تتوفّر أوربا عليها، ليس بسبب افتقارها لآليات إنتاج المعرفة، وإنما بسبب تمركزها حول ذاتها، ونظرتها لنفسها بوصفها مركز الكون ومعلّمه، فلا تسمع إلا صدى صوتها، ولا تقرأ إلا ما يكتبه مفكروها وفلاسفتها، ما أوقعها في وَهْم التفوق تاريخاً وحاضراً.

هذا الوضع لا شك أحدث خللاً في طبيعة المعرفة المُنتجة أوربياً، وأوجد قدْراً من الشكِّ والرِيبة فيها، وقد ظهر هذا الخلل منذ مشروع الاستشراق الذي كان نتاج هذا التفكير في المعرفة، وبالتالي جاء "نقد الاستشراق نقداً لطريقة إنتاج المعرفة، ولم يكن _بكلِّ تأكيد_ انتقاداً لأيِّ جنس، أو شعبٍ، أو ثقافة"[25]. وجاء نمط إنتاج المعرفة في هذا المشروع متّسقاً مع المشروع الأوروبي التوسُّعي، وهو ما أثار نقده من هذه الناحية، منذ زمن طويل حتى قبل إدوارد سعيد، من قِبل باحثين كُثر عرضوا له حين تناولوا العلاقة بين الإمبراطورية وإنتاج المعرفة.

ويدور السؤال الرئيس لدباشي في كتابه هذا حول إمكانية تحرر أوربا من نزعتها المركزية، من "فخ المجاز المستنزف الذي يتوق إلى ماضيه"، هذا الماضي الذي يحول دون معرفتهم لآخرين "غير أوربيين" معرفةً حقيقيةً، والتعلُّم منهم، أو محاورتهم طالما هم لا يقرؤون لهم، وإن هم قرؤوا فسرعان ما يُحيلون ما قرؤوه إلى ما يعرفونه بالفعل، بالرغم من أنّ هؤلاء (الآخرين) قد يكتبون بلغات أوربا التي يفهمونها حقاً، ويتعاطون ثقافتها التي يعرفونها معرفةً جيّدةً. يقول دباشي عن منظري ما بعد الاستعمار ومحاوريهم من الفلاسفة الأوربيين:

"أنتمي أنا وميغنولو ونيغام... إلى جيل من مفكري الحقبة ما بعد الاستعمارية الذين نشؤوا مضطّرين لتعلُّم لغة وثقافة محاوريهم الاستعماريين. ولم يكن لدى هؤلاء المحاورين أيِّ سببٍ، يدفعهم للقيام بالمثل. قد أصبحوا محليين، بافتراضاتهم عن الكونية. ولقد أصبحنا كونيين تحت وطأة الاستعمار الذي سعى إلى جعلنا محليين"[26].

[25] حميد دبّاشي، هل يستطيع غير الأوربي التفكير، ترجمة: عماد الأحمد، منشورات المتوسط، ميلانو، إيطاليا، ط1، 2016: ص 27.
[26] نفسه: ص 16.

International Journal of Educational Sciences and Arts (IJESA)
Vol. (3), No. (1)
IJESA
January 2024
المجلة الدولية للعلوم التربوية والآداب
الإصدار (3)، العدد (1)

جاء هذا النص لدباشي في سياق ردة الفعل التي أحدثتها مقالته الشهيرة التي نشرها على موقع الجزيرة الإلكتروني في العام 2013م، والتي تمثّل نواةَ الكتاب الذي حمل عنوانها، (هل يستطيع غير الأوربي التفكير؟)، فلامست المقالة قلوب المتلقّين الذين قرؤوها وأخذوا في التعليق عليها، كما يقول دباشي "بشكلٍ فاق الحدود التي تخيّلتُها، أو التوقُّعات التي راودتني لدى كتابتها"[27]. كما أحدثت المقالة ردودَ فعلٍ متباينةٍ، تفاوتت بين التأييد المطلق، والرفض الحاسم، فبقدر ما اصطفّ عدد من الفلاسفة والباحثين الأوربيين لمهاجمتها أمثال سانتياغو زابالا، ومايكل ماردر، وسلافوي جيجك[28]. انبرى آخرون للدفاع عنها، من أشهرهم والتر ميغنولو[29] الذي كتب مقالةً عميقةً أعاد فيها صياغة سؤال دباشي (هل يستطيع غير الأوربي التفكير؟) كإجابةٍ، وعالج في هذه المقالة القضايا التي طرحها دباشي في مقاله بشكلٍ جدّي. كما كتب أديتيا نيغام مقالةً جاءت بعنوان (نهاية حقبة ما بعد الاستعمار، والتحديات أمام الفكر غير الأوربي)، أوضح فيها نقطةً مهمّةً حين أشار إلى أنّ هؤلاء الأشخاص الذين تصدُّوا لدباشي لا يملكون أدنى فكرة عن عمله الذي يناقشونه، أو "عمل أيِّ شخص آخر بعيداً عن أوربا؛ لأنهم لا يمتلكون أي اهتمام، أو سبب، يدفعهم إلى ذلك"[30].

أثارت هاتان المقالتان العديد من الردود بما عالجتاه من قضايا، وبما توسعتا فيه من نقاش، حين أعادتا عرض مادة دباشي. جاء أهمّ هذه الردود من الفيلسوف الأوربي الشهير سلافوي جيجك الذي رفض ما قاله ميغنولو وهو ما يعني ضمناً رفضه لدباشي، حيث بدأ مقالته بعبارةٍ حادةٍ، قائلاً (تباً لك، يا والتر ميغنولو)، فتنصّل في مقالته تلك عن ماضي أوربا الاستعماري، الذي لم يكن ماضياً عادياً للشعوب المستعمَرة التي تعرضت للإبادة وامتهان الكرامة، كما أنّ هذا الماضي ما يزال يتلبّس روح أوربا التي ينافح جيجك عنها، فيحول بينها وبين تعلُّم شيءٍ جديدٍ. جاء في مقالته: (لا ينبغي أن تكون مهمّتي الأساسية _ بأي شكلٍ من الأشكال_ مستمدةً من ماضي الشعوب الملوّنة. وإني لستُ مجبراً على تكريس نفسي بأيِّ طريقةٍ لإحياء حضارةٍ سوداء، تمّ تجاهلها ظلماً. لن أجعل من نفسي رجلاً، ينتمي إلى أيِّ ماضٍ، كان) [31]. لكن السؤال الذي يبرز هنا هل بالفعل استطاع جيجك كأوربي تجاوز ماضي أوربا المفعم بالعنف وجرائم الضمير، والمتّهم بإفقار الشعوب في كل أرجاء العالم الذي كان مستعمَراً، ليس مادياً فحسب وإنما ثقافياً واجتماعياً وفكرياً؟ وهل استطاعت أوربا ومفكروها تجاوز

---

[27] نفسه: ص 13.
[28] فيلسوف وناقد ثقافي سلوفيني، قدم مساهمات في النظرية السياسية، ونظرية التحليل النفسي، وهو أستاذ في كلية الدراسات العليا الأوروبية، ويوصف بأنه أخطر فيلسوف سياسي في الغرب.
[29] فيلسوف وناقد ثقافي سلوفيني، قدم مساهمات في النظرية السياسية، ونظرية التحليل النفسي، وهو أستاذ في كلية الدراسات العليا الأوروبية، ويوصف بأنه أخطر فيلسوف سياسي في الغرب.
[30] نفسه: ص 16.

ماضيهم المتسربل بتضخُّم الذات وإقصاء الآخر، وعدم رغبتها أو قدرتها، لا فرق، بالتحاور معه؟ ثم ماذا عن هؤلاء الذين يصفهم جيجك ب(الملوّنين)؟ هل عليهم انتظار أوربا التي استحوذت يوماً ما على ماضيهم وخرّبته، أن تتفضل بالسماح لهم بامتلاك حاضرهم ومستقبلهم إذا لم يتحرّكوا هم للسيطرة عليه ثقافياً ومعرفياً وجغرافياً؟ إذا لم تستطع أوربا التي يتحدّث جيجك إنابةً عنها في هذا النقاش فعل ذلك! _وليس بمقدورها أن تفعل _ على الأقل حتى الآن، فإنه يتوجّب على مفكري العالم الثالث وفلاسفته، أولئك الملوّنين أن يكفُّوا عن مخاطبة مُحاورٍ ميِّتٍ، تستبدُّ به أوهام العظمة، وأساطير التفوّق، وأن يبدأ هؤلاء "الذين لا يزالون يعدُّون أنفسهم مشرقيين، في إنهاء استعمار عقولهم"[32].

أما عقل المستعمَر فقد جرى احتلاله بتخطيط مدروس منذ بدأت أوربا فرض سيطرتها على العالم غير الأوربي، فكان خطاب المستعمِرين مجالاً رحباً لالتحام القوة بالمعرفة، وكانت السياسة التعليمية للمستعمِرين في المؤسسات التعليمية ضرورةً حتميةً للسيطرة على عقول الشعوب المهزومة، وتكوينها من جديد وفق خطةٍ تضمن إدامة السيطرة. ولنا أن نتساءل إن كان نظام المعرفة الذي تم فرضه في المؤسسات التعليمية الاستعمارية، نظاماً محايداً؟ وإن كانت المعرفة التي يتمّ إنتاجها وتلقّيها كانت معرفةً موضوعيةً وغير مؤدلجة؟

من الحقائق التي تكشّفت اليوم ولا جدال حولها أن الاستعمار عمل على تشكيل البنى المعرفية في كل الأماكن التي وصلت إليها حملاته، وهي أماكن من الاتّساع تكاد تغطّي مساحة الكون كله. تقول آنيا لومبا:

"أعاد الاستعمار تشكيل البنى القائمة للمعرفة الإنسانية. فلم يبقَ فرعٌ من فروع العلم لم تمسُّه التجربة الاستعمارية. كانت العملية شبيهةً بعض الشيء بعمل الأيديولوجيا ذاتها، فهي في آنٍ واحدٍ إعادة تمثيل للواقع، وإعادة ترتيب له. ومثل الأيديولوجيات نشأت من ظروف مادية، وكانت ماديةً في تأثيرها"[33].

هل تقول لومبا عن عملية إنتاج المعرفة ونشرها في ظل التوسّع الاستعماري، كان شبيهةً بعمل الأيديولوجيات؟ نعم، إنها كانت كذلك في أغلبها إن لم تكن كلها، خاصةً تلك التي تتعلّق بالعلوم الإنسانية، وهي التي تمثل أهمية خاصة في هذه الدراسة. والسبب في التعامل مع المعرفة بهذه الطريقة المتحيّزة يرجع إلى قدرة المعرفة العلمية على الإقناع باعتبارها "موثوقة وقوية تماماً؛ لأنها عرضت نفسها على أنها خالية من

[32] نفسه: ص 22.
[33] نفسه: ص 22.

أحكام القيمة وحيادية وعالمية... ولهذا من الصعوبة بمكان مناجزة ادعاءاتها"[34]. خذ مثلاً الخطاب العلمي المتعلّق بالأعراق والأجناس والذي كان مدار نقاش طويل خلال قرون التوسُّع الإمبريالي، والذي كان يناقش: هل لون البَشْرة يتشكّل نتيجةً للطقس والبيئة أم أنه مسألة بيولوجية طبيعية وعلامة إثمٍ من عند الله؟ وقد اقترح الخطاب العلمي حينها أنّ الأمر يعود إلى فارق بيولوجي وطبيعي. وقد ترتّب على هذه النتيجة (العلمية) أمور أخرى شديدة الفظاظة حول الملوّنين، طالت "خصائصهم الحضارية والثقافية"[35]، وتمّ ربط هذه الخصائص بما ساد من مفاهيم، مثل: الأعراق الأدنى، والأعراق الخاضعة، والأعراق المتوحشة، والأعراق قليلة العقل، وأكلة لحوم البشرْ، وغير تلك من التصنيفات المتحيِّزة التي مثّلت الوقود للمستعمِر في تدميرهم أو تغييرهم.

هنالك مسألة أخرى لا نستبعد تأثُّرها بمسألة العرق تكشف عن طبيعة خطاب الأيديولوجيات العلمية، وكيفية عملها، ففي كتابه ذائع الصيت (أثينا السوداء) Black Athens يحاجج مارتن بيرنال "أن تاريخ مصر السوداء ومركزيتها بالنسبة للتراث اليوناني القديم محته دراسات القرن التاسع عشر من أجل بناء إرث هيليني أبيض لأوربا"[36]. هل بعد هذا كله وغيره، يمكن القول إن الخطاب العلمي الأوربي كان بمعزل عن الخطاب الاستعماري وتحيُّزاته، وإنه كان خطاباً محايداً وموضوعيا؟ ولم يكن له دور في إفراغ عقول الشعوب المستعمَرة، وإعادة ملْئها بما يخدم أغراض المستعمِرين؟ هل نملك إلا أن نضع أيدينا على أفواهنا!

لقد هدفت استراتيجية الاستعمار حول المعرفة المنتجة والمتلقاة إلى إحكام السيطرة على عقول المستعمَرين التي لم تكن من قبل فارغةً من أيِّ محتوى كما يحاول الخطاب الاستعماري الترويج له، فأغلب هذه الشعوب كان لها ماضيها المعرفي الذي ينظّم شؤون حياتها، وبعضها كانت لهم حضارةٌ عظيمةٌ، لكن هذه العظمة لم تحُل دون محوها. وقد طال هذا المحو التراث المادي الروحي على حدٍّ سواء، كان الدمار شاملاً، كما هو الحال بالنسبة لتراث الهنود الحمر مثلاً، وإذ "يحرق الأسبان كتب المكسيكيين حتى يتمكنوا من محو ديانتهم، ويهدمون آثارهم حتى يتسنّى لهم القضاء على أية ذكرى لعظمةٍ سابقةٍ"[37]. ولعل أفضل من يتحدّث عن عظمة الحضارة المكسيكية المُبادة فاتح المكسيك نفسه كورتيس الذي يصفها وصفاً يدلُّ على أنها كانت حضارةً مدهشةً، تحوي أعظم عجائب الدنيا. فمما قاله عنها: "ليس هنا أمير معروفٌ في العالم

[34] نفسه: ص 73.
[35] نفسه: ص 72.
[36] نفسه: ص 74.
[37] تزفيتان تودوروف، فتح أمريكا: مسألة الآخر: ص 67.

يملك أشياء بمثل هذه الجودة"، "إن المعابد مشيّدة من حيث الخشب والبناء تشييداً بالغ الروعة بحيث أنه لا يمكن أن يوجد ما هو أفضل منها في أي مكان"، "لقد كانت هذه المدينة (مكسيكو) أجمل شيء في العالم"[38]، وغير هذه من الأقوال التي تدلُّ عظمة هذه الحضارة، وعلى افتتان كورتيس بها، لكن مع هذه العظمة وهذا الافتتان لم تنجُ الحضارة ولا الذين أقاموها من التدمير والإبادة. فما السبب وراء ذلك؟

السبب فيما يظهر لنا أنّ الاستعمار كان مصمماً على قطع الصلة بين الشعوب المستعمَرة وبين أيِّ ماضٍ سابقٍ لوجوده؛ ليتمكن من التحكّم في نوع المعرفة الجديدة التي يريد زرعها في عقولهم من خلال المناهج التي يتم فرضها في المدرسة الكولونيالية، وقد كانت بالفعل معرفة أوربية خالصة، أُرضعت فيها هذه الشعوب قيماً غريبةً عليها، شكّلت الزاد للتوسّع الغربي بعد إقصاء المعارف الأخرى بعنف، فقد مكّنت هذه العملية المستعمِر من إدامة استعماره، ومن تسهيل حكمه للمستعمرات الجديدة، ومن المحاججة بأنّ ماضي الشعوب المستعمَرة كان يباباً لا شيء فيه يعتدُّ به أو يُبنى عليه، وأنّ أوربا حين حلّت بديارهم إنّما جاءت لانتشالهم من الضياع الحضاري الذي كانوا يعيشونه. هذا فضلاً عن دلالة هذه الإبادة على أنّ هؤلاء المستعمِرين لا يعترفون بآخرين ذواتاً إنسانيةً كاملة الأهلية، وقادرةً على التفكير والإبداع العلمي والحضاري، لذلك لم يتوانوا في إبادة معظمهم، وقطع الصلة بين من تبقى منهم وتاريخه العلمي، والعمل على غرس معرفة أوربية مؤدلجة في ذهنه، قاد هذا الغرس في نهاية المطاف إلى استعمارٍ للعقل ما تزال هذه الشعوب أو بعضها تعاني منه رغم خروج المستعمِرين، وهو ما يحاول مفككو الخطاب الاستعماري رسم سبل النفاذ إلى الخروج منه، واستعادة العقل المحتلّ.

الخاتمة

سعت هذه الدراسة إلى مناقشة إشكاليتين، نهضت بهما المقاومة الثقافية التي برزت في سياق نظرية ما بعد الاستعمار، فحرص منظّروها على إعطائهما أولوية في مقاومتهم للاستعمار وآثاره في ثقافات وفنون الشعوب المستعمَرة، هما: استعادة الصوت، واستعادة العقل، وقد توصّلت إلى النتائج التالية:

- ظهرت نظرية ما بعد الاستعمار في صيغتها النهائية في النصف الثاني من القرن العشرين بوصفها حقلاً جديداً من التحليل يهدف إلى إعادة النظر في الخطاب الاستعماري بوصفه خطاباً مقصدياً له توجهاته ودوافعه التي لا تتطابق بالضرورة مع توجُّهات وأغراض الشعوب المستعمَرة، وتغطّي هذه النظرية في

[38] نفسه: ص 138_139.

مجال عملها ثقافات وآداب كل الشعوب التي خضعت للتجربة الاستعمارية الغربية الحديثة، وتركت آثارها القوية فيها، فأنتجت مقاومةً ثقافيةً تروم تفكيك الخطاب الاستعماري ومقولاته الرئيسة.

- المقاومة الثقافية التي برزت في ثنايا مناجزة المستعمِر هدفت إلى استعادة الصوت المقموع، ذلك من خلال الاستحواذ على اللغة والكتابة الإبداعية والنقدية، اللذيْن كانا في السابق حكْراً على المستعمِر الذي سخّر جهوداً عظيمةً فيهما لتحقيق أغراضه التوسّعية. فحين امتلك المستعمَر أدوات التعبير من لغة وآداب وفنون استشعر أسباب القوّة التي عمِل من خلالها إلى خلق ممارسات مختلفة، وتجارب كتابية وإبداعية جديدة، وبخيال جديد، تنزع نحو المستقبل، وتملك الطاقة والقدرة على النقد والرفض والتنقيح.
- يحاجج المنظّرون للمقاومة الثقافية بأنّ الاستعمار عمد منذ لحظة وصوله إلى السيطرة على عقول الشعوب المستعمَرة، وتكوينها من جديد وفق خطةٍ مرسومةٍ تضمن له إدامة السيطرة. فبعد أن أحكم سيطرته على الأرض، فرض سياسةً تعليميةً جديدةً، تَحكَّم من خلالها في نوع المعرفة التي أرادها، فكانت معرفةً أوربيةً خالصةً، لا تخلو من أبعادٍ أيديولوجيةٍ، تضمن له التفوّق، وتثير الشكوك في التاريخ العلمي والثقافي للمستعمِرين، وتعمل على تغبيش الوعي في أذهان المتعلّمين. وهذا ما اقتضى إنتاج خطابٍ علميٍّ جديدٍ، سعى إلى تفكيك هذا الإرث الاستعماري، وعمل على تقويضه واستعادة العقل المستعمَر.
- نشير في الختام إلى أنّ هذه الدراسة ليست دعوة للانعزال والحذر المبالغ فيه من الآخر، إذ لا تقل فكرة الانعزال في ضررها بالأفراد والمجتمعات عن التبعية المذلّة، وإنما هي دعوة لاستعادة الوعي، وتمتين التفكير الناقد للمشروع التوسُّعي الغربي، وتصفية آثاره السالبة، وعقابيله المدمرة، والتي ما تزال تفعل فعلها في حاضر المقموعين، وربما في مستقبلهم. فالحياة لا تستقيم إلا على مبدأ العدالة في احترام خيارات الشعوب، وتاريخها الثقافي والعلمي، وليس بتجريدها من فضائلها السالفة، أو الراهنة.

فهرست المصادر والمراجع

1. إدوارد سعيد، الثقافة والإمبريالية، ترجمة: كمال أبو ديب، دار الآداب، بيروت، ط2، 1998.
2. أمارتيا صن، الهوية والعنف: وهم المصير الحتمي، ترجمة: سحر توفيق، عالم المعرفة، الكويت، 2008.
3. آنيا لومبا، في نظرية الاستعمار وما بعد الاستعمار الأدبية، ترجمة: محمد عبد الغني غنوم، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، سوريا، ط1، 2007.
4. بوريس إيخنباوم وآخرين، نظرية المنهج الشكلي: نصوص الشكلانيين الروس، ترجمة: إبراهيم الخطيب، ط1، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، لبنان، الشركة المغربية للناشرين المتحدين، المغرب، 1982.

5. بيل أشكروفت، جاريث جريفيثيز، هيلين تيفين، الإمبراطورية تردُّ بالكتابة: آداب ما بعد الاستعمار: النظرية والتطبيق، ترجمة خيري دومة، أزمنة للنشر والتوزيع، عمّان، الأردن، ط1، 2005.
6. تزفيتان تودوروف، فتح أمريكا: مسألة الآخر، ترجمة: بشير السباعي، سينا للنشر، القاهرة، مصر، ط1، 1992.
7. حميد دبّاشي، هل يستطيع غير الأوربي التفكير، ترجمة: عماد الأحمد، منشورات المتوسط، ميلانو، إيطاليا، ط1، 2016.
8. خيري منصور، الاستشراق والوعي السالب، مكتبية مدبولي، القاهرة، ط2، 2005.
9. ديفيد كارتر، النظرية الأدبية، ترجمة: باسل المسالمة، دار التكوين للتأليف والترجمة والنشر، ط1، 2010.
10. رومان ياكوبسون، قضايا الشعرية، ط1، ترجمة محمد الولي ومبارك حنوز، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، 1988.
11. فرانز فانون، معذبو الأرض، ترجمة: سامي الدروبي وجمال الأتاسي، مدارات للأبحاث والنشر، القاهرة، مصر، ط2، 2015.
12. نغوجي واثينغو، تصفية استعمار العقل، ترجمة: سعدي يوسف، دار التكوين للتأليف والترجمة، دمشق، سوريا، 2011.